مبدأ السببية في التحليل النفسي

محمد صوالحين

شعبة علم النفس الاجتماعي

جامعة محمد الخامس الرباط

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

ملخّص

يهدف هذا المقال إلى تسليط الضوء من وجهة نظر إيبستمولوجية على نظرية التحليل النفسي خاصة فيما يتعلق بفكرتي السببية و الحتمية. هذا التصور الحتمي أو التوجه الحتمي عند فرويد له سياقاته الموضوعية في أوائل القرن العشرين و مساهمتنا هي بالأساس مساءلة وتساءل حول مدى اعتماد المنهج الوضعي المنطقي في التحليل النفسي.

Abstract

The aim of this article is to shed light on the theory of psychoanalysis from an epistemological point of view, especially regarding the ideas of causality and determinism. This inevitable conception or orientation of Freud had its substantive contexts in the early 20th century and our contribution is essentially accountability and questioned the extent to which the logical positivist approach was adopted in psychoanalysis.

مقدّمة

يهدف هذا المقال إلى تناول مبدأ السببية في نظرية التحليل النفسي حيث سأحاول من خلاله أن أتبين كيف أن فرويد يعتبر جميع الأفعال و السلوكات الصادرة عن الذات حتمية ولا تصدر اعتباطا، فكيف يبرر فرويد هذا التصور الحتمي عندما يستدعي اللاشعور؟

على المستوى الإبستيمولوجي، يمكن القول في البداية، أن هنالك اختلافا بين السببية والحتمية،فالأولى تعني أن لكل حدث سبب يسبب وقوعه، أما الحتمية فهي تأكيد جذري للسببية، وهي تعني أن أي حدث يمكن توقعه من خلال ملاحظاتنا السابقة لكل الأحداث في الطبيعة. بهذا المعنى فالطبيعة تتصرف كآلة ضخمة ولا يمكن أن تحتوي على اختلالات، إذ يكفي أن نحدد ما كان غليه العالم، وكيف سيكون قبل وبعد هذه اللحظة.

ف"دافيد هيوم" نبهنا إلى أن فكرة السببية ذات طبيعة نفسية تتعلق بارتباطات ذهنية وليس موضوعية، إذ أننا نسقط انطباعاتنا وأفكارنا على الأحداث التي تظهر لنا وبالتالي نحن مدعوون لكي نفسر لأننا اعتدنا على أن نبحث عن سبب لكل حدث. لقد أصبح مبدأ السببية مشكلة إبيستيمولوجية منذ أعمال الفيلسوف "هيوم" في القرن الثامن عشر، حيث ظل محط نقاش وجدال سواء في العلوم الحقة أو العلوم الإنسانية، في حين أننا نجد الطبيب النمساوي "سيجموند فرويد" يؤكد على وجوب اعتماد سببية صارمة في بدايات القرن العشرين. ففرويد يشير إلى أنه على المحلل النفسي أن يتشبث بمبدأ الحتمية كمبدأ مؤسس في نظرية التحليل النفسي.

فما هي طبيعة التفكير السببي، وكيف يؤسس معارفنا وكيفية تناولنا لما يحيط بنا؟

الفقرة الأولى: عن طبيعة التفكير السببي

إن الحديث عن فكرة السببية هو بالأساس حديث عن علا قه الذات بالموضوع, إذ يمكن التساؤل : هل تحتوي الطبيعة على ترابطات علية أم أننا نسقطها على المواضيع ؟ بعبارة أخرى : هل فكرة السببية ذاتية أم موضوعية؟

بالنسبة ل "هيوم" ، فالفكرة ذات طبيعة سيكولوجية تتحدد من خلال ما نسقطه على الطبيعة من تصورات و أفكار كما لو أننا نعود للعالم لننظمه. لدينا نفس العلاقة بين الحدث و النتيجة فننتقل إلى الاعتقاد بان نفس الحدث إذا تكرر فسوف تتكرر نفس النتيجة، فمثلا:عندما نعرّض الحديد والنحاس إلى درجة حرارة معينة نلاحظ أنهما يتمددان،فنستنتج أن الحرارة سبب و التمدد نتيجة،عندما نعيد التجربة نحصل على نفس النتائج فنعتقد أن الحرارة تمدد الحديد و النحاس.

إن فكرة السببية تعبر عن ترابط جزئي بين حدثين انطلاقا من ملاحظا ت خاصة. أمّا عندما ننتقل من أحكام خاصة إلى أخرى عامة، فإننا نعبر عن فكرة الحتمية لأن هنالك ضرورة تتجاوز المعطيات الجزئية تحتم علينا القول بقانون عام مفاده أن جميع المعادن لابد أن تتمدد عند تعريضها لدرجة حرارة معينة.

لكن لا يجب أن نعتقد بان خصائص الموضوعات تقدم لنا الترابط السببي، بل هي انطباعاتنا حول المواضيع و الأشياء لأنه عند حدوث الحدث نكون مطالبين بتفسيره، انطلاقا من اقتناعنا أن كل ما يحدث له سبب مهما كان خفيا، فالعدم غير كاف ليكون سببا، و يجب أن يكون الحدث مرتبطا بشيء سببا مهما كان هدا السبب مستترا.

هذا ما انتبه إليه "هيوم" حين أكد أن الفعل السببي ناتج عن تفكير مرتبط بانطباعات ناتجة عن ملاحظات سابقة، و بالتالي نحن دائما نتذكر تلك الانطباعات لكي نفسر من خلالها ما نلاحظه في الوقت الراهن. إذن علاقة الترابط العلي ذات طبيعة ذهنية قائمة على التشابه بين الملاحظات.

يقول هيوم: "إن أول ظهور للموضوع لا يقدم أي سبب لكيفية حدوثه،لكن يمكن اكتشاف العلة في الذهن،كما يمكن أن نتوقع حدوث الحدث بدون تجربة، و نستطيع أن نحكم بيقين بخصوص ظهور هذا الحدث انطلاقا من التفكر و التعقل.(1)

بالنسبة ل"هيوم" فالسببية فكرة سيكولوجية مرتبطة بأفكار و انطباعات، فالأنا هو مجموع الأفكار المتأتية من تجارب سابقة، أما الحتمية فهي تأكيد ميتافيزيقي تيولوجي و يجب حرقها.

إن ملاحظة تكرار الارتباطات بين حدثين، ورغم أننا لم نعاين إلا بعض الأمثلة، فإننا ننتقل إلى التعميم و القول بان جميع الأحداث ذات طبيعة حتمية، وهذا الانتقال لا يمكنه أن يتأسس إبستيمولوجيا إلا إذا قبلنا بمبدأ الاستقراء، و هو تبعا ل "برتراند راسل" مبدأ قبلي لأن عقلنا ينتقل مما هو جزئي و خاص إلي ما هو كلي و عام بطريقة تجعله يكتفي ببعض الملاحظات الجزئية لكي يعممها. هده الفرصة للمرور من الجزئي إلى الكلي هي قبلية و ليست نتيجة انطباع آت من التجربة. إن هده الفرصة استعداد أولي نفسي.

بالنسبة ل" راسل" فالعلاقة السببية بين شيئين قائمة على مبدأ الاستقراء، إذ يجب أن نقبل به لكي نؤسس لنظرية علمية قائمة على ترابطات علية، لكن لا يجب أن نعتقد بان الارتباط السببي يقيني.

يقول "راسل": "إذا كان شيء مرتبطا بطريقة ما مع شيء آخر، فإنه من المحتمل أن الأول يرافق الثاني وبمقدار ارتفاع عدد الأمثلة الترابطية بين شيئين فإن الاحتمال يقترب من اليقين" (2).

في الأخير يمكن القول أن مبدأ السببية قبلي بالنسبة للتوجه الوضعي المنطقي، و هو قائم على مبدأ الاستقراء الذي مفاده أننا إذا لاحظنا حالات جزئية تتكرر فإن كل الحالات ستتكرر بكيفية متشابهة.

الفقرة الثانية: عن كيفية بناء التوجه الحتمي في التحليل النفسي

إنتبه" هيوم"إلى أن طبيعة التفكير السببي سيكولوجية تتعلق بأذهاننا وليس بالارتباط الحاصل في الطبيعة،فالعلاقة العلية هي ارتباطات بين الانطباعات والأفكار، ونحن نسقط هذه الارتباطات على الأشياء.هل هذا يعني أن الظاهرة النفسية ذات طبيعة سببية؟ كيف يتموضع "فرويد" بالنسبة لسؤالي السببية والحتمية؟

مبدئيا يمكن القول أن "فرويد" يتقيد بالسياق الابستيمولوجي الكلاسيكي لان الظاهرة النفسية بالنسبة له ذات طبيعة سببية حيث يقول: "يجب على المحلل النفسي أن يتشبث بحتمية الحياة النفسية، فهي ليست اعتباطية أو عبثية ويجب استدعاء السببية لتفسير الظاهرة السيكولوجية"(3). إن فرويد يتشبث بمنهج الوضعية المنطقية التي تعتبر السببية قائمة على مبدأ الاستقراء،وإننا عادة ما نكتفي بما هو خفي لتحديد سبب الظاهرة التي تبدو أمامنا.

يقول" راسل": "عندما لا نستطيع تطبيق فرضيات الميكانيكا فإننا نفترض تواجد أجسام خفية تفسر لنا الأحداث. **(4)**

من جهة أخرى،يجب الإشارة إلى أن نظرية التحليل النفسي تندرج ضمن سياق سوسيو ثقافي يتمثل في أن العلوم آنذاك حققت درجة عالية من الدقة،خاصة الرياضيات والفيزياء والكيمياء. ففرويد يحاول الصعود إلى مستوى النظرية العلمية عند مقاربته للظاهرة النفسية، وبالتالي فانه يسعى إلى إمكانية مضاهاة العلوم الإنسانية للعلوم الحقة. كذلك تشبث فرويد بالسببية كان لغرض علاجي:أي تفسير الحالات المرضية التي كان يعاينها سواء في المستشفى أو في عيادته بفيينا.

كما لا يجب أن ننسى بان المقاربة العصبية في بداية القرن العشرين قد أبانت عن فشلها في تحديد سبب المرض النفسي حيث لم تستطع إيجاد أساس عصبي كسبب للهستيريا."إن فشل المنهج العيادي العصبي في تحديد أصل هذا المرض قد فتح الباب أمام المقاربة النفسية للظاهرة المرضية.فالهستيريا كانت مادة مفضلة انبنت عليها دراسات عديدة حول اللاشعور وحول مفهوم المرض العصابي"(5).

وبالفعل، دعى "برجسون" منذ سنة1901 إلى وجوب وضع مناهج ومقاربات تتماشى مع اكتشاف اللاشعور، وهذه مسؤولية علم النفس في بدايات القرن العشرين، حيث لم يشك "برجسون" في أن اكتشافات جميلة تنتظر هذا العلم على غرار ما وصلت إليه العلوم الفيزيائية والطبيعية.

بالنسبة لفرويد، فالحلم ذو طبيعة سببية، والعصاب كذلك،وكل التمظهرات الشعورية، عرضية ومحددة بما هو خفي."من الواضح أن الحلم والعصابة يوفران ما لا يدع مجالا للشّك في أن للتحليل النفسي كل الحق للصعود إلى مستوى العلوم التي تسعى إلى فهم الإنسان"(**6**).

هذه بعض الجوانب التي انبثقت من داخلها نظرية التحليل النفسي والتي ما فتئت تحقق انتشارا واسعا بالرغم من أنها ظلت محط نقاش وجدال خصوصا في ما يتعلق بمبدأ الحتمية كمبدأ مؤسس، فكيف ينبني هذا التوجه الحتمي عند فرويد؟

"في نظرية التحليل النفسي نقبل بدون تردد أن مبدأ اللذة ينظم انسياب السيرورة النفسية آليا، بعبارة أخرى فهذا المبدأ ناتج عن توتر غير مرغوب فيه، وعن محاولة الجهاز النفسي إنتاج اللذة وتجنب الألم"(**7**). لقد وضع فرويد تصوره للسيرورة النفسية على المستوى الاقتصادي وذلك باختزال جميع الرغبات إلى الليبيدو، وهي طاقة ذات طبيعة جنسية تنظم كل التوازنات النفسية، سواء طوبوغرافيا أو ديناميا. فمن خلال ملاحظة فرويد المتكررة لمرضاه تبين له أن الذات المصابة يصدر عنها أفعال تنم عن تقابل بين الظاهر والخفي على أساس أن هذا المختفي يحدد الظاهر."من المؤسف أن لا نجد تفسيرات واضحة بخصوص مبدأ اللذة سواء على المستوى الفلسفي أو النفسي لان منطقة الألم و اللذة غامضة و يصعب تحديدها، فإذا كان من المستحيل لمس هذه الجهة المظلمة فسوف يكون ممكنا وضع فرضية مقاربة لكيفية عملها (**8**).

بالنسبة فرويد،فمبدأ اللذة ينظم كل السيرورات السيكو–فيزيائية للذات والتنظيم هنا يعني أن السيرورة حتمية تحتوي ترابطا سببيا.

إن سلوكاتنا محددة برغبات لا شعورية تنظم التوازنات النفسية وحتى الجسدية: لدينا توتر غير مريح ويجب أن يؤدي إلى نتيجة أساسية هي ضرورة أن تعمل الذات على التخفيض من حدة هذا التوتر،فالهستيريا ناتجة عن مقاومة المريض لرغبات لا شعورية مكبوتة."الجهاز النفسي له ميل للحفاظ على التوتر غير المرغوب فيه في الأسفل كلما أمكنه ذلك،ومن الممكن أن صدمة العصابي كانت في الأصل لذة لم تصل إلى عتبة الشعور"(9).

فاللاشعور يختزن الرغبات واللذات المنسية التي تعبر عن نفسها أحيانا من خلال الأحلام،وهاته الظاهرة تمثل بالنسبة فرويد طريقا ملكيا نحو اللاشعور،لقد سمحت له دراستها باكتشاف هذه الجهة المظلمة و الغامضة.

"الحلم تكملة للتمني و دافعه هو التمني"(10).

للحلم طبيعة تراجعية وقد يستدعي أحداثا طفولية منسية كما قد نحلم صدمات وأحداث مؤلمة ظلت مختفية لكنها موجودة في اللاشعور بكيفية مكثفة. إذن فالطبيعة السببية للحلم تظهر من خلال أن الجهاز النفسي يظل يعمل ليحافظ على التوازنات النفسية بل وحتى الجسدية–الفيزيولوجية. وبالتالي يمكن القول أن التوجه الحتمي عند فرويد ينبني على محورين أساسيين:

الماضي يحدد حتما الحاضر(صدمة الطفولة).

الطابع الحتمي للتحليل النفسي يعتمد غلى أساس أن الفعل اللاشعوري عبارة عن عملية إخفاء متكررة.

بالنسبة للتوجه الأول: الظاهرة المرضية سواء كانت وسواسا أو هيستيريا أو قلقا عصابيا تشير إلى أن المريض يتصرف كما لو كان ملاحقا بتوجه شيطاني يسيطر على حياته وجميع أفعاله، إذ إن للتحليل النفسي اعتقادا راسخا بأن المريض يصنع ويهيئ القسم الأكبر من هاته السيطرة على وجوده.

إن سبب السلوك الهستيري خفي حيث يمكننا القول:"العصاب ناتج حتما عن ترسبات نفسية والأعراض الجسدية للعصاب ناتجة عن صدمات متكررة"(**11**).

فالهستيري يعاني من اضطرابات التذكر وأعراضه عبارة عن رموز وتجمعات لبعض الأحداث المأساوية المنسية والمختفية لكنها تظل توجد في غياهب اللاشعور.

أما التوجه الثاني ففرويد يركز من خلاله على طريقة عمل الجهاز النفسي في أنشطته البدائية مثل لعب الأطفال، فقد لاحظ طفلا عمره سنة ونصف حيث كان يرمي بلعبة تحت سريره ثم يرسل أصواتا تدل على أنه يخاطب تلك اللعبة ويقول لها: إذهبي. لقد انتبه فرويد إلى أن الطفل ربط دميته بخيط وكان يقوم برميها ثم يعيدها لتظهر من جديد فينبسط. تبين له أن هاته العملية التي يقوم بها الطفل ترمز لأمه وأنه يحاول إسقاط غيابها وظهورها على الدمية من خلال العملية التكرارية إظهار –تغييب التي يقوم بها. فما لفت فرويد هو أن الطفل لا يهتم بحضور أو غياب أمه ولا يتشكل لديه أي امتعاض إّذا غابت لأنه عوّض غيابها وحضورها بالعملية التكرارية إظهار– تغييب للدمية.

من جهة أخرى ففرويد يبحث عن تحديد الظاهرة النفسية من خلال تركيزه على طبيعة العلاقة بين مبدأ اللذة أو الرغبة وعملية التكرار، بالنسبة له فالرغبة هي توجه مرتبط بالعضو الحي لأجل إعادة خلق حالة حياتية سابقة لأن الكائن الحي له نزوح نحو العودة إلى ما هو سابق والذي تركه تحت ضغط الإكراهات الخارجية وبالتالي فهو محكوم بالعودة إلى البداية. فمثلا سمك السلمون يعود إلى الأنهار ليضع بيضه في الأصل الطبيعي الذي جاء منه حتى يتسنى له أن يبدأ حياة جديدة:"إن سلوك بعض الحيوانات يبين أنها مدفوعة برغبات محددة مسبقا"**(12)**.

كذلك ففرويد يسعى إلى تحديد الظاهرة المرضية من خلال تبيان أنها تجلي للظاهرة النفسية التي بدورها لا تنفصل عن الجهاز البيولوجي، فالرغبات ذات طبيعة بيولوجية تراجعية ، إنها تطلب الحياة وهدف هذه الحياة هو الموت:"بالرجوع إلى الوراء،إلى اللاحياة،كانت هناك من قبل :الحياة"(13).

لقد انتبه فرويد إلى أن الخلية الحية لها خاصية الحفاظ غلى حياة العضو من خلال بناء المادة الحية ثم الانفصال بعد ذلك عن العضوي.ويبدو أن هذه العملية التكرارية البيولوجية بناء ثم تهديم تنظم و تحافظ على التوازنات النفسية عند الكائن الحي :"إن المسار التراجعي الذي يؤدي إلى تحقيق الإشباع يكبح من طرف المقاومة أو الرقابة التي تجعل المكبوت يحاصر، لكي ينتقل عبر طرق أخرى محاولا الصعود دون فقدان الأمل في إمكانية الوصول إلى الهدف، وهدا الأمل يكون في الغالب ضعيفا" **(14)**.

يبدو أن الظاهرة النفسية سببية ويجب فقط ترك المريض يتكلم حتى نجد عقدته المنسية التي تظل تتواجد في اللاشعور مكثفة مع عقد أخرى، وهي في حركية دائمة، فيكفي أن ندخل مع المريض في تداعيات حرة على أساس أن كل ما يتفوه به يشير إلى ما هو خفي ومكبوت ويجب فضحه. إذا فضحنا المكبوت ألغينا المرض عن طريق منهج التداعي الحر الذي يظل الوحيد الممكن ممارسته عند مقابلة المريض .يقول فرويد:"بالرغم من صعوبة المنهج فإنه الوحيد الممكن ممارسته في التحليل النفسي"**(15)**.

إن الميتودولوجيا التحليلية التي صاغها فرويد تعتمد على أن السلوك المرضي إشارة أو تعبير عن عقدة مكبوتة تظل تتكرر في الخفاء،وتحاول أن تصل إلى المجال الشعوري الذي يقاومها مما ينتج عن ذلك تمظهر غير سوي.

هناك إذن حوار بين المحلل النفسي والمريض عبر سرده لأحلامه ولماضيه الطفولي،للأحداث التي يتعرض إليها والتي تؤثر عليه و عبر هفوات لسانه التي تعبر عن أسباب الخلل عند الذات المعالَجة،حيث إن هدف المحلل هو أن يجعل هذه الذات تبوح بالمكبوت:إن سبب المرض مختفي لكنه موجود في الهوُ.

على المستوى الإبستيمولوجي يمكن اعتبار أن نظرية التحليل النفسي قد أعادت طرح ما هو عميق في ذواتنا وما هو خفي لكنه يوجد ويسبب كل تلك التمظهرات الإرادية. فاللاشعور يشكل قاعدة وأساسا يُنطلق منها في تفسير الحالات المرضية في علم النفس المرضي خصوصا فيما يتعلق بالأمراض العصابية والتي أصبحت تعالج عن طريق استعمال منهج تحليلي مفاده أن خطاب المريض يُخفي معنى أو سبب المرض ويجب القيام بعملية نبش آركيولوجي، وذلك بالرجوع إلى ما قد يعنيه كلام المريض وكيف يمكن أن نصل إلى عقدته المكبوتة انطلاقا من تحليل الأعراض التي تظهر عليه وكل السلوكات.

قائمة المراجع

1-Hume, D. Enquête sur l'entendement humain. Paris, Edition Montaigne, 1947, p.110

2-Russel.B., La méthode scientifique en philosophie. Edition Payot, Paris, , p.261. 2002

3-Freud S., Cinq leçons sur la psychanalyse, troisième leçons, Paris. Edition Payot, 2001, p.53.

4-Russel.B., La méthode scientifique en philosophie. Op.cit. p.258.

.5-Pewzner Ev., Naissance et développement de psychopathologie. Édition Dunod, Paris, 2002, p.200.

6-Freud.S., L'interprétation du rêve, Nouvelle Edition révisée par : D.Berger, Paris. 1967, p. 602.

7-Freud.S. Essai de Psychanalyse, Edition Payot, Paris, 1981, p.43.

8-Freud. S. Essai de Psychanalyse, Op.cit, p.44.

9-Ibid. p.47.

10-Freud S, L'interprétation du rêve, Op, Cit, p.154.

11-Freud S., Cinq Leçons sur la psychanalyse, Op.cit.p.16.

12-Freud.S. Essai de Psychanalyse, Op.cit, p.80.

13-Freud.S. Essai de psychanalyse, Op.cit, p.82.

14-Ibid, p.87.

15-Freud.S. Cinq leçons sur la psychanalyse, op.cit, p. .43.